المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي

«بحوث في التفكير النحوي والتحليل اللغوي»

الأستاذ الدكتور

خليل أحمد عمايرة

أستاذ علم اللغة والنحو العربي سابقاً في:

جامعة اليرموك - الأردن

جامعة الملك عبدالعزيز - السعودية

جامعة الإمارات العربية المتحدة

مستشار في البنك الاسلامي للتنمية



المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي

(بحوث في التفكير النحوي والتحليل اللغوي)

تأليف

الأستاذ الدكتور خليل أحمد عمايره

أستاذ علم اللغة والنحو العربي سابقاً في:
جامعة اليرموك - الأردن
جامعة الملك عبد العزيز - السعودية
جامعة الامارات العربية المتحدة
مستشار في البنك الاسلامي للتنمية

الطبعة الأولى

٢٠٠٤



رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٢٠٠٣/٨/١٦٧٨)
٤١٥
عمايرة ، خليل أحمد
المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي: بحوث في التفكير النحوي والتحليل اللغوي/ خليل أحمد عمايرة . عمان: دار وائل، ٢٠٠٣.
(٥٥١) ص
ر.إ. : ٢٠٠٣/٨/١٦٧٨
الواصفات: اللغة العربية / قواعد اللغة / اللسانيات

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 9957-11-339-9 (ردمك)

* المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي
* الأستاذ الدكتور خليل أحمد عمايرة
* الطبعـــة الأولى ٢٠٠٤
* جميع الحقوق محفوظة للناشر



تنفيذ وطباعة البرجي بيروت - لبنان
تلفاكس: ٢٧٢٢٢٥ ٠٠٩٦١١
خليوي: ٣٣٤٦٤٨ ٠٠٩٦١٣

دار وائل للنشر والتوزيع
شارع الجمعية العلمية الملكية - هاتف : ٠٠٩٦٢-٦-٥٣٣٥٨٣٧
فاكس: ٠٠٩٦٢-٦-٥٣٣١٦٦١ - عمان - الأردن
ص.ب (١٧٤٦ - الجبيهة)
www.darwael.com
E-Mail: Wael@Darwael.Com

المحتوى

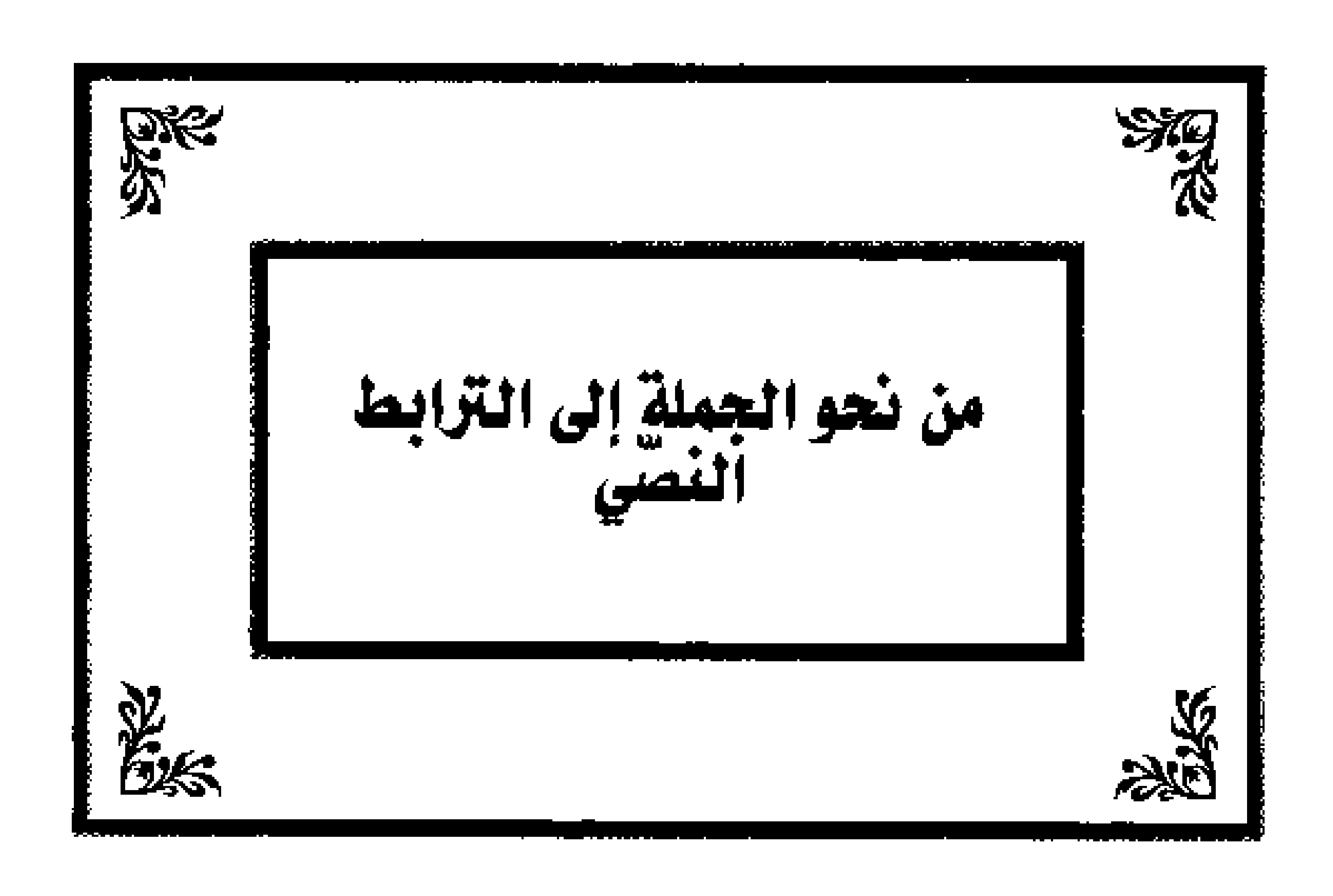
الرقم	البحث	الصفحة
1.	الاهداء	3
2.	مقدمة	7
3.	القبائل الست والتقعيد النحوي	15
4.	وقفة مع نبر بعض أوزان الماضي والمضارع (دراسة وصفية)	39
5.	دعوة إلى قراءة جديدة للنحو العربي (وقفة مع الاسناد)	71
6.	رأي في بعض أنماط التركيب الجملي في اللغة العربية على ضوء علم اللغة المعاصر	103
7.	رأي في بناء الجملة الاسمية وقضاياها (دراسة وصفية)	135
8.	المعنى في ظاهرة تعدد وجوه الاعراب (في نماذج من سورة البقرة)	181
9.	اعراب المعنى ومعنى الاعراب في نماذج من القرآن الكريم...	217
10.	النظرية التوليدية التحويلية وأصولها في النحو العربي.......	247
11.	حلقة الوصل بين الألسنية الحديثة والنحو العربي	267
12.	البنية التحتية بين عبد القاهر الجرجاني وتشومسكي	289
13.	اللغة بين الانسان والفكر	311
14.	من نحو الجملة الى الترابط النصي	337
15.	في تحليل لغة الشعر	369

الرقم	البحث	الصفحة

16. وقفة مع صلوات في هيكل الحب – للشابي 439

17. التطور اللغوي المعاصر بين التقعيد والاستعمال 495

18. الاعداد الثقافي لمعلم اللغة العربية للناطقين بغيرها 535



من نحو الجملة إلى الترابط النصّي

تُعـدُّ اللغة أهم وسيلة تعبير إنساني؛ يستخدمها الفرد لنقل المعلومات بينه وبين مجتمعه فردا أو جماعة، أو مع ذاته في دعائه أو همهمته في مخاطبة الذات، أو مناقشة أفكـار مـع نفسه، أو مع آخرين يفترضهم أو يتوهمهم، فيبادر بمجموعة من الأصوات استجابة لهذا الموقف أو ذاك، ولا يكون هذا كله بقصد الإبلاغ أو نقل المعلومات، وإنما هو استجابة نفسية أو اجتماعية أو فكرية أو اقتصادية.

ولـو تأملنا الجمل التي تقال في مثل ما سبق، فإننا سنجد أنها تقع في إطارين مختلفيـن، فإن كانت من النوع الذي يقصد به المتكلم تحقيق الاتصال أو نقل المعلومات بينه وبين مجتمعه، فإنها تتسم بتتميم الفائدة في ذاتها، أو بذاتها، أو بالأجزاء المرتبطة بهـا فـي السياق النصي، أمّا إن كانت من النوع الثاني: الهمهمة أو مخاطبة الذّات، أو حـتى مخاطـبة آخريـن بقصد إزالة حرج إطالة الصمت في جلسة اجتماعية ليس بين حاضـريها ميادين مشتركة للحديث، كما يحصل بين كثير من الناس في مثل هذا الموقف فـي بريطانيا، يتحدثون عن الطقس أو ما يتصل به، فتكون الجمل مقطوعة عن السياق، أو هي قابلة للقطع عن السياق: الطقس جميل، الجو متقلب، البرد شديد، الثلوج غزيرة، أو أن يخاطـب النفس لائما أو معاتبا فيقول: اليوم أنفقت كثيرا، ليتني فعلت كذا... إلخ، أو أن يدعو ربّه: اللهم اغفر لي، يا الله سامحني، رب أعطني..... إلخ.

فـإذا ما تأملنا الجمل في الإطارين السابقين، فإننا سنجد أن أهم سمة تتسم بها جمـل الإطار الثاني أنها "مغلقة" تفيد معناها مقطوعة عن غيرها، في حين تكون جمل الإطـار الأول "مـترابطة" وكأنهـا مفتوحة من طرفيها أو من طرف واحد على الأقل، تنتظر ارتباطها بغيرها من طرف واحد أيضا على الأقل، فإذا ما حاولنا أن نصنف دراسة الإطاريـن السـابقين، فإننا نجد أن الأول كان موضوع الدرس النحوي، وأن الثاني كان

موضـــوع درس النقد الأدبي مستخدما لذلك معطيات البلاغة بمصطلحاتها وقدرتها على بناء الصورة الفنية الأدبية.

فقــد درس نحـــاة العربـــية القدماء الجملة ومكوناتها، وحدوها بأنّها مجموعة الكلمـــات التـــي تحمـــل معنى يحسن السكوت عليه[1]، وأنها إمّا اسمية مكونة من مبتدأ وخبر، أو فعلية مكونة من فعل وفاعل، ومن مفعول به عند بعضهم، يضاف إلى هذه أو تلــك بعض الفضلات بعد تحقيق الإسناد، وظلت الجملة الوحدة الرئيسة للدرس اللغوي النحوي حتى يومنا هذا عند النحاة واللغويين، فأخذوا يدرسون الأبعاد الدلالية في حركة مباتـــيها أو في ترتيب وحداتها الصرفية، وما يترتب على ذلك من تسمية الجملة اسمية أو فعلـــية ودراســـة خلافات العلماء في ذلك، أو تنصرف الدراسة إلى معرفة الحذف أو الـــزيادة فـــي الجملة الواحدة، مع تعدد وجهات نظر العلماء في دراسة المعاني المترتبة على ذلك كله، مع أن جلّ النحاة درسوها من حيث الحركة الإعرابية وما يسببها حذفا أو إضـــمارا أو ذكرا، من غير اهتمام كبير بما يترتب على أي عنصر من هذه العناصر من حيـــث الدلالة أو المعنى، ولا من حيث الخروج على أصل المباني في التركيب الجملي أو على أصل حركاته، فالأصل في الخبر مثلا أن يكون مفرداً (تركيبيا) فيأخذ عندئذ الحركة الأصـــل لباب الخبر، ولكنه إن خرج على أي من هذين الأصلين، كان يمثل الباب النحوي (الخـــبر مـــثلا) جملة اسمية أو جملة فعلية أو شبه جملة، فإن كلاً من هذه تؤدي دورا دلالـــيا مخـــتلفا عن الأخرى، وكذا إذا تغيرت الحركة الإعرابية عن أصل وضعها، فإنها تـــؤدي دورا دلاليا مختلفا، (وامرأته حمالةَ الحطب)، وسنبين ذلك في ما بعد. ويكفي هنا أن نقتـــبس مـــا قاله الجرجاني فيما يقوي ما نذهب إليه في أن المقصود بالإطار الكبير للـــنحو هـــو إدراك المعـــنى المترتب على البدائل المستعملة في تمثيل الأبواب النحوية، يقـــول[2]: "وهـــل رأيـــتم إذ قـــد عرفـــتم صورة المبتدأ والخبر، وأن إعرابهما الرفع، أن تـــتجاوزوا ذلـــك إلـــى أن تنظروا في أقسام خبره، فتعلموا أنه يكون مفردا وجملة، وأن المفـــرد ينقســـم إلـــى ما يتحمل ضميرا له، وإلى ما لا يحتمل الضمير، وأن الجملة على أربعـــة أضـــرب، وأنه لابد لكل جملة وقعت خبرا لمبتدأ من أن يكون فيها ذكر يعود إلى المبـــتدأ، وأن هـــذا الذكر ربما حذف لفظا وأريد معنى، وأن ذلك لا يكون حتى يكون في

الحال دليل عليه، إلى سائر ما يتصل بباب الابتداء من المسائل اللفظية والمسائل الجليلة التـــي لابــد مــنها؟" ثم يتابع قائلا[3] "...... وهكذا ينبغي أن تعرض عليهم الأبواب كلها واحــدا واحدا، ويسألوا عنها بابا بابا، ثم يقال لهم: ليس إلا أحد أمرين: إما أن تقتحموا التـــي لا يرضاها العاقل، فتنكروا أن يكون بكم حاجة في كتاب الله، وفي خبر رسول الله صـــلى الله علـــيه وسلم وفي معرفة الكلام جملة، إلى شيء من ذلك. وتزعمون أنكم إذا عرفـــتم مثلا أن الفاعل رفع، لم يبق عليكم في باب الفاعل شيء تحتاجون إلى معرفته: ثم يقول[4]: "وإما أن تعلموا أنكم قد أخطأتم حين أصغرتم أمر هذا العلم".

ومـــن العلماء من انصرف إلى دراسة الجملة المسكوكة[5] التي تتكون من مبان محـــددة بترتيب ثابت لا يقبل التغير، ما أن ينطق المتكلم بأولها حتى يتمكن السامع من إكمالهـــا فـــي مـــا يســـميه علمـــاء اللغـــة المعاصرون (توقع ما سيقال) Linguistic Collocations(المـــتلازمات الكلامية) [6]، ومع أن هذا النوع من الدراسة يقوم على بعد آخر في الدرس اللغوي، إلا أن الجملة هي وحدتُهُ في التحليل والدراسة: دراسة الحقيقة أو المجاز في الانحراف اللغوي والاتساق اللغوي اعتمادا على أنّ بين المبدع والمتلقي، أو المـــتكلم والسامع لغة مشتركة تستند إلى موروث اجتماعي مشترك، وكذا تقوم على مجموعة من النظم التي قد يُدرس فيها كلّ نظام على حدة، وباستقلال عن الآخر، فيكون كـــلّ نظـــام مـــنها عـــندئذ قوة كامنة، بالقوة تنتظر خروجها في الاستعمال لتكون بذلك موجـــودة بالفعل ووسيلة تعبير وتأثير، هذه النُظُم هي: النظام الصرفي، والنظام التركيبي (النحوي)، والنظام الدلالي بشقيه المعجمي والسياقي.

تخـــتلف دراســـة كـــلّ نظام منها عن دراسة الآخر باختلاف العناصر التي تَهمُّ دارس كـــل نظام؛ فدارس الأصوات مثلا يهتم بمخارجها، وصفاتها، والوسيلة التي تحمل موجاتهـــا، وصامتها ومتحركها، وطويلها وقصيرها.... الخ، ويهتم دارس الصرف ببنية الكلمـــة وما يجري فيها من تغيير من إعلال وإبدال أو إدغام، ومعرفة موازين الكلمات.. الخ. في حين يهتم دارس النظام التركيبي في الجملة العربية بنسيج الجملة وما فيها من تقديم وتأخير، وما فيها من حركات إعرابية، ومحاولة تفسير أسباب وجودها، وتقسيمها إلـــى اسمية أو فعلية .... الخ. ويقف الدارس للنظام الدلالي مع المعنى المعجمي للفظة

فـــي معـــزل عن السياق كما يهتم بها في سياق، ويهتم أيضا بالحقول والدوائر الدلالية التـــي تعـــتمد على علاقات المفردات بعضها ببعض. فتتهيأ بذلك عناصر دراسة النسيج النصي المسبوك في تتابع جملي قوامه المعنى، فهذا يمثل الخيط الذي تنتظم فيه مفردات الـــنَّص في جمله في ما يسميه عبد القاهر الجرجاني "بالنظم" [7] ويسميه كثير من النقاد القدمـــاء غـــيره "بالســـبك" فالمفردات: (ذكرى، نبك، من، قفا، ومنزل، حبيب،...الخ)[8] مجموعـــة من المفردات لا سبك لها ولا نظم فيها، فلا معنى لها مجتمعة، ومن ثمّ فهي ليســـت بجملة، وعليه فليست بنسيج نصّي يتناوله النحو أو الدلالة. فالحرف (منْ يحتاج إلـــى ما ينضم إليه فيجره ويلازمه، (من ذكرى) وذكرى تحتاج إلى مضافها وتفتقر إلى الالـــتحاق به لتتلازما (من ذكرى حبيب) وحرف النسق يربط بين متجانسين على سبيل التلازم (من ذكرى حبيب ومنزل) والفعل يحتاج إلى فاعل ينضم إليه ويلازمه (قفا) وهذا يفـــتقر إلـــى غاية أو سبب له، (قفا نبك)، فيحصل بذلك السبك في المباني تحقيقا للسبك الدلالي، ولو جعلها متكلم: من ذكرى حبيب ومنزل قفا نبك لكان فيها سبك دلالي قاصر، يفتقر إلى القدرة على سلاسة توصيل المعنى، وأكثر منه قصورا أو فسادا في السبك أن يقول:

ومن ذكرى حبيب ومنزل نبك قفا.

ولا يخفـــى ما في هذا النَّص من أسباب القصور أو الفساد، ومن ثم لا يخفي ما فـــيه من نقص في المعنى المتوخى من نسيج النص. وهناك أسباب كثيرة تقود إلى مثل هـــذا الفساد أو القصور فتؤدي إلى ما يسمى بالغموض أو اللبس Ambiguity، فتقول مـــثلا: مـــررت بأصدقاء خالد وعلي، فهل أن من مررت بهم هم أصدقاء خالد وأصدقاء علي أم أنهم أصدقاء خالد ومررت بعلي أيضا.

ونقـــول: زيـــارة الأصدقاء مشكلة، فيلتبس المعنى من غير قدرة على تحديد أن المضاف إليه فاعل في المعنى أو المفعول.

ونقول: مد الله في عمرك وبارك فيك، فهل هذه جملة خبرية أم هي إنشائية.

ونقول: معهد المخطوطات مهتم بمصادر الثقافة القديمة، فهل النعت للمصادر أم هو للثقافة.

ونقـول أخـبر الطالب المعلم أن أباه قد حضر إلى المدرسة، فهل الضمير عائد على الطالب أم عائد على المعلم.

ونقول: يهدي الله من خلقه من يشاء، فهل فاعل يشاء يعود على فاعل يهدي أم هو عائد على مفعول لذاته (مَنْ) [9].

ولمـا كـان الـنحو هـو النظام المعياري الذي يحتكم إليه في ضبط التراكيب الجمـيلة، فـإنّ ذلك يجب أن يقود إلى فرضية تعدد المعنى بتعدد تغيير وظائف الأبواب النحوية في الجملة أولا، وبتعدد الممثلات الصرفية للأبواب النحوية في التركيب الجملي، ولكن المعنى يتضح، إما بتحديد علاقة الباب النحوي بالباب النحوي في الجملة، ومن ثَمّ بتحديد علاقة الممثل الصرفي بالممثل الصرفي فيها؛ لأن الباب يتضح ويتجسد محسوسا بممـثله الصـرفي[10]، أو أن السـياق النصـي يحدده ويوضحه، فلو أخذنا، مثلا، قوله تعـالى ﴿ما أعجلك عن قومك يا موسى﴾[11] في معزل عن السياق الذي وردت فيه، فإنها قـد توجه إلى التعجب كما توجه إلى الاستفهام، كما توجه إلى النفي أيضا، ولكن السياق يصـرفها إلـى معـنى واحـد لـيس غير: ﴿قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك ربِّ لترضـى﴾[12] وفـي قوله تعالى: ﴿قالوا لن نُؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فـاقض مـا أنت قاض﴾[13] يقول تمام حسّان " تحتمل الواو هنا أن تكون للقسم والمعنى "نقسـم بمـن فطـرنا"، وأن تكون بمعنى العطف، والمعنى "لن نؤثرك على من فطرنا"، والقرينة الدالة على العطف قرينة حالية، وهي أنهم كانوا في حالة اعتراف بالدخول في ديـن موسـى، فلم يسبق لهم عهد بأن الله فطرهم، وإذا لم يسبق لهم ولا لفرعون هذا العهد، فإن القَسَمَ حينئذ غير مراد، وإنما المراد إعلان الدخول في دين موسى، وأنهم لن يفضلوا فرعون على الإله الذي خلقهم"[14]

ويمكن أن يحمل على هذا الضرب: التورية، والمجاز، والألغاز والأحاجي، وكذا المشترك اللفظي، وظاهرة التضاد في اللغة، فكلّها ظواهر تحتاج إلى عناصر خارجة عن

اللغة، بل عن الجملة التي تكون فيها الظاهرة ليتمكن السامع أو المتلقي من فهمها، ولو لم تتضح هذه العناصر (القرائن) لمتلقي النّص، فإنه لن يفهم معناها، فتكون هي له عندئذ جملا بلا فائدة إخبارية، أو بلا قيمة اتصال بين المبدع والمتلقي.

ففي التورية كما في الكناية، هناك معنيان أحدهما قريب لا يكون مقصودا، والثاني بعيد وهو المقصود بالجملة، ولكنّ الكناية تفترق عن التورية في إمكان إيراد المعنيين وإن كانت البلاغة المقصودة تكمن في البعيد، في حين إن المعنى البعيد في التورية هو الذي يراد ليس غير[15] فانظر إلى قول الشاعر:

وصاحبٍ لمّا أتاه الغنى   تاه ونفس المرء طمّاحة

وقيل هل صادفت من يدٍ   تحمدها، قلت ولا راحة

فتأمل الكلمتين (تاه)، و(راحة): فهل تاه بمعنى ضلّ طريق الصواب والخير، أم هي بمعنى تبختر وتكبّر وتعالى. وراحة، هل الراحة هي راحة اليد أم قلة التعب ، فكانت كلمة (يد) في صدر البيت الثاني وقد ارتبطت بكلمة تحمدها مانعة إيراد المعنى القريب. وانظر إلى قول الشاعر في خياط أعور خاط له قباء، وبعد أن أخذه ولبسه قال:

خاط لي عمرو قُباءً   ليت عينيه سواء

فاسأل الناس جميعا   أمديح أم هجاء

وحقا، ليس بمقدور الناس جميعاً الحكم (أمديح أم هجاء)، فإن كان أعجبه القباء فمديح وتمنٍ بأن تكون العين غير السليمة كالسليمة، وإن لم يعجبه فهجاء ودعاء لأن تتعطل السليمة فتستوي مع أختها. ومثلها قول المسؤول الأعور الذي قال لمحدثه وقد أوصاه بأن يهتم بأمر عزيز غال، قال (هي في عيني) فهل يعني بها عنايته بالوحيدة الغالية وقد زادت قيمتها لانفرادها في وجهه وضياع أختها، أم تراه يقصد أنه سيضعها في ما قد أصبح عنده مهملا وموضع نسيان. وهذه هي التعمية لعدم إمكانية الوصول إلى المعنى بأية وسيلة إلا أن يصرّح المتكلم بما قصد، فالتعبير بغير هذا التصريح لا تواصل فيه ولا إعلام.

ولعل مثله، ولكن بدرجة أقلّ تعمية وأكثر اتصالاً وإعلاماً، ما نجده في الجمل أو التراكيب التي تحصل فيها مغالطة وإمكان صرف التركيب أو توجيهه إلى وجهة دلالية غير مقبولة، أو إلى وجهة سيئة يقصدها، في حين يحمل التركيب معنى حسناً يغالطه به، فتكون (كلمة حق أريد بها باطل)، وما استعمال (لمراعاة حقوق الإنسان) في التفكير المعاصر إلا من هذا الضرب الذي ظاهره فيه الرحمة وباطنه فيه العذاب والدمار. ومثل ذلك قولنا: "عدوك عدوك" أو "عدوك هو عدوك" أو "اليهودي يهودي مهما أكرمته" فالقرينة في الجملة الثانية (مهما أكرمته)، وفي الجملة الأولى التنغيم والسياق هما القرينة التي تجعل في الجملة درجة اتصال وإعلام، ولولا ذاك لكان المبتدأ هو الخبر والخبر هو المبتدأ، فلا إخبار حينئذٍ. والأصل أن المبتدأ هو الموضوع ويحتاج إلى خبر، فالخبر هو المحمول عند المناطقة، وهما عند النحاة العرب القدماء مسند إليه ومسند، ومن المعلوم أن المسند إليه أو الموضوع أو المبتدأ أسماء لمسمى واحد تقريبا مع اختلاف ظلال كل مصطلح عند الفئة التي تستعمله، والذي يعنينا هنا أن هذه أسماء لمسمى ذهني مجرد، هو باب نحوي، يجسّده ممثل صرفي، هو "عدوك" في الجملة الأولى، و"اليهودي" في الجملة الثانية ويحتاج إلى ما يجسّد باب الخبر ويرتبط به ليتم سبك الجملة وينتظم عقدها، وهذه هي العلاقات النحوية – في ما نرى–؛ أي هي علاقات أبواب نحوية، ومن ثمّ هي علاقة الممثلات الصرفية التي تمثلها، محققة بذلك الترابط المعجمي في علاقات نحوية، فينتج عن ذلك المعنى الدلالي للجملة المسبوكة. ومثل هذا يكون من الجمل في إطار سبك النص، كما سنبين في موضوع لاحق. ففي إطار الترابط المعجمي في علاقات نحوية نستطيع القول: أقام كبيرُ الحجارة وليمةً في شارع الذهب الأصفر في حديقة الماء البارد. فمن حيث العلاقات النحوية فإن الجملة ترقى إلى مستوى الصحة التامة، إذ إن الفعل جاء على ميزانه في الأفعال، واقتضى فاعلا، ومفعولا به، فكان الفاعل مكونًا من مضاف ومضاف إليه، أخذ كلٌ حركته الإعرابية الصحيحة، وهكذا الأمر في بقية الأبواب في الجملة وممثلاتها الصرفية: الجار والمجرور، والمضاف إليه والنعت.... إلخ. ويمكننا بناء على ذلك إن نعربها إعرابا سليماً، ولكنها لا يمكن أن تسمى جملة من حيث السبك أو الفائدة أو تحقيق الاتصال بين

مبدع ومتلقٍ؛ وذلك لأنها لا تحقق الترابط المعجمي، وأرجو ألاّ يذهب ذهن القارئ إلى توجيه النّص على أنه من المجاز، باحثاً له عن درجة من درجات السَّبك وقبوله؛ لأنّ المجاز يكون بنقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي[16]؛ أي المعنى المعلوم في العرف الاجتماعي بين الدال والمدلول ناتجاً عن علاقة لغوية؛ كالتشبيه مثلاً، أو عن علاقة عقلية؛ السببيّة والحالية والمحلية وغيرها. وعدم احتمال ورود المعنى الأصل، إمّا لأن الترابط المعجمي يمنعه كما في الجملة السابقة، أو لأن السياق يصرف الذهن عن المعنى الأصل.

فإن تحقق الترابط المعجمي، في علاقة نحوية سليمة، فقد تحقق أهم عنصرين من عناصر السبك أو التنسيج النّصّي، الذي يحقق الإعلام أو الاتصال بين المتلقي والمبدع، ثم تأتي بعدهما عناصر أُخر، تسهم في إكمال السَّبك وقوة التنسيج، ومن أهم هذه العناصر: مقدار عناصر بناء الصورة الفنية في النّصّ، بل يكاد هذا العنصر يُعدُّ المسؤول عن إعجاب المتلقي بما يسمع أو يقرأ، فيجعله في منطقة الإعجاب بالتصوير الجميل وبخاصة في الشعر وبنائه، أو ردّه وإخراجه من جمل السبك الفني، أو من جمال الشعر في بنائه، ومن هذا ما يستشهد به جُلّ النقاد القدماء وقسم كبير من المحدثين مثالاً لهذا الشعر قول الشاعر[17]:

ولما قضينا من منى كلّ حاجـــــة	ومسح بالأركان من هــو ماسـح
وشدت على حدب المهاري رحالهـــا	ولم ينظر الغادي الذي هو رائــح
أخذنــا بأطراف الأحاديـــث بيننـــا	وسالت بأعناق المطيّ الأباطــح

فالترابط المعجمي موجود، والعلاقات النحوية قائمة سليمة، ولكن الخطاب لا يزيد على كونه من الشعر المبتذل الذي لا قيمة فيه: زرنا البيت وحججنا، ومسح بأستار الكعبة من شاء، ثم شددنا الرحيل فلم ير الغادي الرائح،... الخ، فهي قصة وصف، أو وصف في قصة.

ولكنّ قراءة النّصّ قراءة أُخرى، تكشف عن شيء خلف الكلمات، تسهم في بناء الصورة الفنية الوجدانية للشعر في مثل هذه الحالة: سفر وانتقال واغتراب، ورؤية

البيت الحرام وأداء مناسك الحج، جمالٌ تتحرك ورجال بجهزونها، وأحاديث المودة والمحبة في الله، وصداقة وتوقع افتراق، وسفر العودة ومحاولة التغلب على ما فيها من مشاعر الانصراف عن البيت الحرام (وهو أمر يعرفه كلّ من جرّبه)، وكذا مشاعر الانصراف عن الأصدقاء الذين التقت الروح معهم بالروح، إنها تجربة نفسية صاخبة، متعارضة المشاعر، جعلت الشاعر يرى أن وصفها يغني عن كشف ما فيها، وأن التصريح بها يغني عن الإيحاء بما فيها، أي جعلته يضع الصورة النفسية في مكان الصورة الفنية. وعليه، فقد كان من النقاد مَنْ حكم له، وجلّهم حكموا عليه. ولعل ما نذهب إليه هو الذي قصده عبد القاهر الجرجاني حين حكم لهذا النص بالحسن، وبأنه[18] "الذي لا تجده إلا في كلام الفحول ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال، كقوله:

وسالت بأعناق المطيّ الأباطح"

وهذا التناسق بين العلاقات النحوية والترابط المعجمي هو الذي جعل عبد القاهر الجرجاني ينوه بهذا الشعر قائلاً[19]: "وليست الغرابة في قوله:

وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

على هذه الجملة، وذلك أنه لم يُغرب لأن جعل المطيّ في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطح، فإنّ هذا شبه معروف ظاهر، ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها، بأن جعل (سال) فعلا للأباطح، ثم عدّاه بالباء، وبأن أدخل الأعناق في البين، فقال (بأعناق المطيّ) ولم يقل: بالمطي، ولو قال (سالت المطي في الأباطح) لم يكن شيئاً. وكذلك الغرابة في البيت الآخر[20]، ليس في مطلق معنى (سال) ولكن في تعديته بعلى والباء، وبأن جعله فعلاً لقوله (شعاب الحي)، ولولا هذه الأمور كلّها لم يكن هذا الحسن، وهذا موضوع يحق الكلام فيه".

ومثل هذا نرى في كثير من أغراض الشعر العربي القديم، الوصف والغزل والمديح والرثاء، فإذا ما نظرنا إلى كثير من القصائد في هذه الأغراض فإننا سنجد أنّها لا تختلف عن الأبيات السابقة، في أنها وصف لعلاقة بالمحبوبة وعينيها، وقدّها، ولون شعرها أو خدودها، وشَهْدِ ريقها، وثقل أردافها وإقبالها تارة وتمنّعها أخرى لإظهار

دلالها..... الخ، لو أننا سنجد وصف علاقة بالممدوح أو المرثي، وكيف أنّ الدنيا تنقص كثيراً لو لم يكن فيها هذا الكائن، أو ذاك الذي كان... الخ.

نقول: إنّ عدداً من العناصر (كما قال الجرجاني في النّصّ السابق)، ذكرنا قسما منها وسنوالي ذكرها، تجعل الحُسن في نصّ معين؛ فيحكم له بالجمال في السبك أو النسيج. ونودُّ هنا أن نؤكد أهميّة عنصر الصورة الوجدانية التي تكمن خلف عناصر النحو والبلاغة والمعجم، أي خلف الصورة الفنّية للنّص، وأنّ إدراكها قد يحوّل حكم الناقد تحويلا تاما أو يقويه، كما هو الحال بين معظم النقاد في جانب والجرجاني في جانب آخر في ما يتعلق بالأبيات السابقة.

ومن العناصر السابقة الهامة أيضاً في سبك النّص وتحقيق نسيجه بأبعادٍ إعلامية اتصالية بين المبدع والمتلقي، وبين الفرد والمجتمع، أو بين الإنسان وتراث الأمم، التأويل، ونقصد بالتأويل المعنى الداخلي للنّص، وليس المعنى الذي تفيده الكلمات في ظاهر التركيب، فيؤخذ من العبارة من المعنى أكثر مما يعطيه ظاهر لفظها للوهلة الأولى عند سماعها، مع أنهما غالباً في اتجاه دلالي واحد، خلافا لما عليه الكناية والتورية أو كما يقول أبو حيان[21] "التأويل إنما يسوغ إذا كانت الجادة على شيء، ثم جاء شيء يخالف الجادة فيتأوّل" أو هو صرف الكلام عن ظاهره إلى وجوه خفية تحتاج لتقدير وتدبر" [22].

يقول تعالى: ﴿اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [23] فليس النهي هنا عن الموت ولا هو عن أي شيء آخر، بل هو أمر وحثّ شديد على الالتزام بالإسلام والتمسّك به حتى اللحظة الأخيرة، حتى إن القارئ يتصور للوهلة الأولى أن الأمر فيها هو بعدم الموت حتى يتم الإسلام. ومثل ذلك في قوله[24]: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيّام أخر، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خيرٌ له، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾، فمن يقرأ (يطيقونه) يرى فيها للوهلة الأولى إذناً حتى لمن هو قادر على الصيام أن يفتدي بإطعام مسكين، فإن تطوّع فصام فهو خير له، ولكن إفطاره مع القدرة على الصيام لا إثم فيه إن دفع الفدية، وهذا ما

ذهــب إليه مجموعة من أساتذة قسم اللغة العربية في إحدى الجامعات العربية في شرح هــذه الآيــة لطلابهــم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم لــيأكلون الطعــام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصــيرا﴾[25] فالــنظرة الأولى تشير إلى أن الصفة البارزة في الرسل أنهم يأكلون الطعام ويمشــون فــي الأســواق، أما المعنى المقصود فهو أن الله يختار رسله من البشر إلى البشــر، يقومون بأعمالهم كما يقوم غيرهم بحاجات الدنيا من أكل الطعام والانتشار في الأســواق، فليسوا من الملائكة، رداً على من قال: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي فــي الأسواق﴾ [26]، لهذا جاءت الآية بعدها: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أُنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيرا﴾ [27] فانكشف المعنى في الآيــة السابقة في (يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) بأنهم أُناس بدليل إنكارهم عدم إنزال الملائكة، وبدليل طلبهم رؤية الله مباشرة، مما جاء فيه قوله تعالى: (استكبروا في أنفســهم)، وفــي هــذا تجاوز كبير للحد، فجاء قوله تعالى (عتوا)، يقول الزمخشري[28]:

"وتجــاوزوا الحد في الظلم، يقال: عتا علينا فلان، وقد وصف العتو بالكبير، فبالغ في إفراطه".

ومــن عناصــر ســبك النَّص ونسجه تحقيق التَّضام بين أركان الجملة، أي بين الممثلات الصرفية للأبواب النحوية في الجملة وصولا إلى تحقيق الاتساق الدلالي للجملة وارتباطها بغيرها من جمل النص، فيتحقق بذلك نسيج النص، وبذا يتم التضافر بين نحو الجملــة ونحــو الــنص لتحقيق التناص وقيمته الدلالية في النص مــن سؤال وإجابة، وحــوار ورد، وغمــوض وتوضــيح، وإيجاز وتفصيل، وإطلاق وتقييد، وغير ذلك من عناصــر بناء النص الواحد في المقام أو الموقف الذي يتم فيه إبداع ذلك النص، فإن لم يــتحقق الــترابط الــنحوي للجملــة الواحدة والاتساق الدلالي لجمل النص، فإن النسيج النصــي يبقى بلا قدرة على إيجاد التواصل بين المبدع والمتلقي، وبذا يفقد الخطاب أهم سمة له كما في كثير من الشعر الحديث في هذه الأيام.

وكــذا إن لــم يــتحقق الإتساق الدلالي مع التضام النحوي في النص، فإن تعدد احــتمالات المعنى يقود إلى ما يسمى باللبس في النص، وما يسمى بتعدد وجوه الإعراب

في الجملة[29] فإن لم يكن في النص ما يزيل اللبس، أو أن يكون في المكنون المعرفي أو في الإحالة المرجعية لدى كل من المبدع والمتلقي ما يزيل هذا اللبس، فإن اللبس واقع لا محالة، والنص ناقص في قيمته الإعلامية، فيتحول بذلك إلى وصف للمباني في مجموعة من الجمل التي تفتقر إلى حسن السبك وإلى عناصر نسيج النص. فإن تحقق التضام التركيبي مع الاتساق الدلالي، حصل حسن السبك وأجاز ذلك للمبدع أن يصرف الممثل الصرفي عن حركته التي يرى المتلقي للوهلة الأولى أنها يجب أن تكون على غير ما تظهر عليه، ولا يكون ذلك إلا لغاية دلالية يتحول إليها المعنى[30] ويود المبدع شد الانتباه إليها، وقد ورد مثل هذا كثيرا في القرآن الكريم وفي الشعر العربي، يقول تعالى:[31] ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾، (فالصابرين) تركيبيا معطوفة على (الموفون) والمعطوف على المرفوع يقتضي الرفع وليس النصب كما في الآية، ولكن لما كان الاتساق الدلالي واضحا فقد صرفت (الصابرين) إلى قيمة دلالية جديدة تكمن في شد الانتباه إلى ما في اللفظة في هذا السياق من أهمية بالغة، يدركها من يفكر في الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

وانظر إلى قوله تعالى[34]: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة المؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾، ترى تحقق السبك النصي واتساق المعنى، مما أتاح الفرصة لشد الانتباه إلى (المقيمين الصلاة) بتغيير الحركة الإعرابية، ونحن على يقين من إدراك كل قارئ أو سامع أهمية الصلاة وإقامتها في الإسلام، فهي عماد الدين، فمن أقامها أقام الدين، ومن هدمها هدم الدين، فاقتضى ذلك أن تنفرد بحركة تخالف حركة بابها النحوي في التضام التركيبي. ونرى أنّ عدم صرف الحركة (حالة النصب) إلى المعنى جعل النحاة يختلفون كثيرا في توجيه إعراب هذه الكلمة، فقيل محله جر عطفا على (ما) وقيل هي نصب على المدح وقيل عطف على الكاف (أي مجرور)،

حتى قيل: (هذا غلط من الكاتب) وهو قول عجيب[33] وقد استطاع الكرماني[33] – في ما نرى – أن يبين وجهة نظر جمهور النحاة في هذا الموضوع وأن يرد عليه ضمنا، ولكنه لم يذكر غيره بديلا له مع عدم موافقته عليه، يقول: (والجمهور إلى نصب على المدح لأن العرب إذا أرادت المبالغة في الذم أو المدح عدلت عن إعراب الاسم الأول إلى النصب بإضمار أعني، أو إلى الرفع بإضمار (هو) .... لا يجوز أن ينصب على المدح، لأن المدح والذم إنما يكون بعد تمام الكلام) ولعلنا نستطيع توجيه قول السكاكي في الرد على من طعنوا في القرآن الكريم من حيث الإعراب مستشهدين بهذه الآية وغيرها، فقال[34] "يقال لصاحبها (الاعتراضات) سمعت (عرفت) شيئا وغابت عنك أشياء، اخدم علم النحو يطلعك على استقامة جميع هذا".

ومما جاء في القرآن الكريم من صرف المعنى وتحويله إلى معنى جديد لتغيير في الحركة الإعرابية عما يقتضيه الترابط النحوي أو التضام التركيبي، وبه يتحقق حسن السبك النصي وقوة نسيجه، قوله تعالى:

﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاعَ الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم﴾ يونس 23

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعدَ الله حقا﴾ لقمان 9-8.

﴿ذلك عيسى بن مريم قولَ الحق الذي فيه يمترون﴾ مريم34.

﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعدَ الله﴾ الزمر20.

﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتابَ الله عليكم﴾ النساء24.

﴿فما استمتعتم به منهم فآتوهن أجورهن فريضة﴾ النساء24.

﴿صبغةَ الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ البقرة138

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى..﴾ المائدة69

وقد دأب النحاة على توجيه الحركة الإعرابية توجيها يتسق مع نظرية العامل، فيجعلون كلمة (وعدَ) في الآيات السابقة على القسم، و(ضرب) على المصدرية، وغير ذلك مما يكون تسويغه معمولاً لعامل محذوف يعمل النصب، ولو كانت هذه الكلمات مرفوعة لقيل هي خبر لمبتدأ محذوف، أو هو نعت مقطوع أو..... ، كما في قول الشاعرة (الخرنق بنت هفان)[35]

لا يبْعَدنْ قومي الذين هـــم	سَمُّ العُداة وآفة الجُــــزر
النازلين بكلِّ معتـــــرك	والطَّيبون معاقـــــدَ الأُزُرِ

ومما يحول فيه المكنون العرفي والإحالة المرجعية دون حصول اللبس في النّص ما جاء في قوله تعالى[36]: ﴿فكذّبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ وفي قوله تعالى[37]: ﴿فأنجيناه ومَنْ معه في الفلك المشحون﴾؛ أي أنّهما يحولان دون صرف الواو إلى باب الحال وجعلها للعطف ليس غير، وكذا في قوله[38]: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهم أربعة أشهر وعشرا﴾ وقوله تعالى[39]: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾، فالإحالة المرجعية تبين أنّ (يتربصن) في موضع الأمر بمعنى فليتربصن، وليست نعتا في الأولى ولا خبراً في الثانية كما قد يُتوهم من البحث في التضام التركيبي للجملة الواحدة، وقد أدرك صاحب الكشاف أن المعنى مختلف عما في الجملة الخبرية، إلا أنّ الصنعة النحوية، والبحث في نحو الجملة دفعة إلى محاولة الجمع بين التضام النحوي والاتساق الدلالي، يقول في تعليقه على (المطلقات يتربصن): (فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص؟ قلت هو خبر تأكيد للأمر، وأصل الكلام: وليتربصن المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنّه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص" [40].

وتتضافر الإحالة المرجعية أحيانا مع قرينة لغوية في النّص لتحقيق حسن السبك وقوة النسيج النّصي، كما في قوله تعالى[41]: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ فبالإحالة المرجعية والمكنون المعرفي نعلم أن محمدا عليه

وعلــى آلــه أفضل الصلاة والسلام لم يكن شاعرا ولم يقرض الشعر في يوم من الأيام، وخــير من يعلم ذلك كفار قريش، فـــ(ما) في (ما ينبغي له) تنصرف قطعا إلى النفي مع أن التركيــب الجملي لا يمنع كونها موصولة، فينقلب المعنى ويتحول إلى غير ما هو له، ويعــود الضمير عندئذ في (له) على الشعر وليس على الرسول، وهذا خلاف لكل مكنون معرفي عن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. ثم جاءت القرينة اللغوية (إن هو إلا ذكر وقــرآن مبيــن) لتصرف (هو) إلى النّص القرآني، ولتبين أنّه قرآن وليس بشعر، فيتم الــترابط العجيب بين نفي أن يكون محمد شاعرا، وكذا نفي أن يكون ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم شعرا.

وتعطــي الـبلاغة بالإضــافة إلى ما ذكرنا سابقا (الاستعارة والكناية والتورية والمجــاز.... الخ) تعطي الفصل، والوصل، والاعتراض، والتمثيل، والتأويل، ورد العجز علــى الصدر والمصاقبة بين الصوت والمعنى، والإيجاز والإطناب، والتزاوج بين معنيين أو أكثر كالشرط والجزاء مثلا كقول البحتري[47]

إذا ما نَهى الناهي فلجّ بي الهـــــوى أصاخت إلى الواشي فلجّ بها الهجـرُ

والتقسيم والجمع كقول حسان[48]:

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوّهـــم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجيّة تلك منهم غير مُحدثــــة إنّ الخلائق فاعلم شرّهــا البـــدعُ

وبالفصــل والوصــف يتحقق الانسجام والتناسق بين الجمل المتصلة أو المترابطة بأحد حــروف الــربط (العطف) فيزداد[49] "الاشتباك والاقتران حتى لا يتصور تقدير أفراد في أحدهما عن الآخر... ومن البيّن في ذلك قوله:

لا تطعموا إن تُهينونا ونكرمكـم وأن نكُفّ الأذى عنكم وتؤذونــــا

ويقــدم الوصــل والفصــل أيضا عند الجرجاني معنى البيان والتحقيق والتوكيد وتفــيد الاســتفهام أيضــا، يقول: ..." وكذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها

بالتـــي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها. وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبيّنة لها، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئا سواها" [50] كما يقدم الفصل والوصل عددا من المعاني في النص، يقول الجرجاني[51]: "اعلم أنّه ما من علم من علوم الـــبلاغة أنـــت تقول فيه إنه خفي ودقيق صعب إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب، وقد قنع النّاس فيه بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف: إن الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله، لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك، ولقد غفلوا غفلة شديدة " وانظـــر فـــي هذا المثال الذي أورده الجرجاني: قال تعالى[52]: ﴿إن الذين كفروا سواء علـــيهم أأنذرتهـــم أم لـــم تنذرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصـــارهم غشـــاوة، ولهـــم عذاب عظيم﴾ فقوله تعالى (لا يؤمنون) تأكيد لقوله (سواء علـــيهم أأنذرتهـــم أم لم تنذرهم)، وقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) تأكيد ثان أبلـــغ مـــن الأول، لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر كان في غاية الجهل، وكان مطبوعا على قلبه لا محالة)

وتقدم البلاغة أيضا المحسنات البديعية، اللفظية والمعنوية: كالجناس، والطباق، والسجع، والاتساق الصوتي أو التنافر الصوتي، والايقاع والقافية والروي في الشعر.

أمـــا من خارج النّص فهناك عناصر هامة تسهم في بناء النّص، وفي فهمه أو إعادة بنائه، كالسياق، والموقف أو المقام والاستنتاج، والصورة الوجدانية[53]، والمكنون المعرفي، والإحالة المرجعية، والتصور الذهني لمحتويات النص، وغيرها.

إن تضافر هذه المعطيات والعناصر كلها هو ما يحقق بناء النص وفهمه، أي ما يحقـــق الاتساق الدلالي في التضام النحوي، فيتمّ بذلك نسيج النص أو سبكه، أو يتحقق بـــذل ما يرى الجرجاني – كما ذكرنا سابقا– أنه النّظم، وهو عنده الإطار الكبير لمفهوم الـــنحو، ففيه يتّحد جوهر البلاغة مع معدن النحو لسبك النص سواء أكان النص بيتا من الشـــعر أم فصـــلا مـــن النثر، يقول[54] "... إن كنت وفّيته حقّه من النظر، وتدبرته حقّ التدبر، إلا أنّك قد علمت علما أبى أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوقف نحوك مذهب، أن لـــيس (الـــنظم) شيئا إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني

الكلـــم، وأنك قد تبينت إنه إذا رُفع معاني النحو وأحكامه مما بين الكلم حتى لا تراد فيها فـــي جملة ولا تفصيل، خرجت الكلم المنطوق ببعضها في إثر بعض في البيت من الشعر والفصل من النثر".

وبـــذا يتبيـــن أن النّص اللغوي الذي نبدع أو ندرس أو نحلل، حصيلة جملة من العملـــيات الفاعلـــة، قل أن يأخذها النحوي المهتم بنحو الجملة في الحسبان؛ لأن وحدة التحليل عنده -كما ذكرنا في مقدمة هذا البحث- هي الجملة بأبوابها وكلماتها، والحركة الإعرابـــية على أواخر الكلمات، حتى إن بعض نحاة العربية عَرّف النحو بأنه علم وضع الحـــركات علـــى أواخـــر الكلـــم في الجمل. وعلى الرغم من أهمية الجملة عنصرا في التحلـــيل، إلا أنّ الوقـــوف معها فقط يحرم النّص من روحه وجماله، ويحرمه كذلك من علاقـــات بيـــن العناصر داخل الجمل المتصلة فيه، علاقات التماسك بين مفرداته، وجمله وأشباه الجمل، والضمائر وما تعود عليه، والتوجيهات البلاغية التي تكوّن صوره الفنّية، فضـــلا عـــن أنه يهمل تماما العناصر المحيطة بالنّص، وهي ذات أهمية بالغة في إبداعه وفـــي فهمـــه، وإعـــادة إبداعه، وسنتحدث هنا عن عدد من هذه العناصر، نبين ماهيتها وأهميتها:

1- السـياق: أخذ العلماء في السنوات الأخيرة ينظرون بشيء من الشك إلى إمكان تحليل جملة – فضلا عن سلسلة لغوية – تحليلا كاملا من غير مراعاة السياق، "فإذا قصد النحوي المهتم بالجملة أن يقدم أحكاما بشـــأن مدى "نحوية" جملة مـــن الجمل، فإنه يعتمد ضمّنياً على اعتبارات ذات علاقة بالسياق" ومن ثم فإن محلـــلَ الـــنّص، والنّص يتكونُ من مجموعة من الجمل المترابطة، أي مجموعة مـــن المقاصد والسياقات المترابطة، تكون مقصدا واحدا استعملت فيه اللغة أداة تواصـــل فـــي سياق معين من كاتب أو متكلم للتعبير عن معان وتحقيق مقاصد، فيســـعى المحلل إلى وصف مظاهر الاطراد في الإحداثات اللغوية التي يستعملها الناس لإيصال تلك المعاني والمقاصد"؛ فيتحتم بذلك أن يكون السياق الذي ورد فـــيه الـــنص موضع أهميته، فيتمكن المحلل من فك الغموض وإزالة الإبهام في كثـــير مـــن الكلمـــات التي تحتاج إلى إحالة، مثلا: هذا، هنا، ذاك، أنت، الذي،

وغيرها، وبفهمها وإزالة إبهامها يتمكن المحلل من الدخول في الإطارين الزماني والمكاني للحدث اللغوي، ويتمكن أيضا من تحديد هوية مسميات الأسماء في النّص. وذلك يُيَسِّر أمر الإحالات وكشفها في النّص. ولعلّ من الهام أن نشير هنا إلى أن أنواع السياق: السياق النصي، والسياق المكاني، والسياق الزماني، والسياق الاشاري، والسياق...... تتضافر كلها لتكوين السياق الموسع وتؤدي كلها دورا هاما في تحليل النّص وفهمه[55].

2- المقام أو الموقف: يُسَلِّمُ الحديث عن السياق إلى الحديث عن المقام أو الموقف الذي يقال فيه النّص، فمعرفة المقام الذي يقال فيه النص يساعد على كشف أوجه الدلالة لجملة ما غامضة فيه، أو مخالفة للعرف الاجتماعي في هذا الموقف، فيكون المحلل قادرا على تحديد الحقائق المرتبطة بالموضوع مما يقدمه المقام، خلافا لما كان يذهب إليه بعض الباحثين من أهل المنطق، حيث يرون بأنّ للكلمات والأطروحات معنى في حد ذاتها يمكن بطريقة أو بأخرى تحديده بمعزل عن المشاركين في الخطاب والظروف والمناسبات التي وقع فيها الحدث الكلامي، وهم في منهجهم هذا لا يأخذون في الحسبان دور المتكلم والمستمع. ومن هنا جاء رد فعل فيرث صاحب المنهج الاجتماعي ورأس المدرسة اللسانية في بريطانيا ليقول[56]: "أما أنا فأقترح أنه لا يمكن الفصل فصلا تاما بين الأصوات (المنطوقة) والسياق الاجتماعي الذي يؤدي فيه دورها، ومن ثم فإنّه يجب النظر إلى كلّ النصوص في اللغات المنطوقة على أنّها تحمل في طياتها مقومات القول بحيث تحيل على مشاركين نموذجين في سياق معمم. وقد أخذ هايمز[57] بمنهج فيرث هذا مركزا على المقام والأشخاص الذين يستعملون النص أو الخطاب، فيرى أنّ "معرفة المحلل للباث في حدث كلامي معين يمكّنه من تصور ما يحتمل أن يقول مثل ذلك الشخص (في ذلك المقام)، وتحدد توقعات المحلل بصفة أكبر بمعرفته للمتلقي، وهكذا تختلف توقعاتك عن اللغة التي تستعمل شكلا ومضمونا باختلاف معرفتك بالمتكلم" ويزيد هذه المعرفة دقة معرفة الظرف، أي السياق الزماني والمكاني للحدث، ووضع الجسم

وهيئة كل من الطرفين، وطبيعة الحدث، والشفرة المرسَلة، وصيغة الرسالة. ثم وضــع الفيلســوف اللغوي لويس[58] تطويرا لهذا كلّه، مجموعة من المؤشرات الخاصة التي تمثل عنده مجموعة متكاملة من العوامل الهامة في تحديد السياق والمقــام للنص أو الخطاب، تعتمد على: المؤشر الزمني لتفسير الأزمنة اللغوية والظــروف في النص، والمؤشر المكاني للتفسير مثل: هناك، خذ هذا، ومؤشر الضــمير، ومؤشــر المســتمعين، ومؤشــر المشار إليه، ومؤشر إمكان وجود موضــوع الحديــث في العالم، ومؤشر الخطاب السابق لتفسير ما ارتبط به من الخطاب موضوع التحليل، ومؤشر الإسناد، وغيرها. وكلها ذات أهمية في تحليل الخطاب وفهم ما فيه، أو استنتاج ما يمكن أن يترتب عليه من تصرف سلوكي، أو استنتاج معاني بعض العبارات فيه، أو معاني ارتباطها بغيرها من الجمل في النص.

3- المكنون المعرفي:

ونقصــد بالمكنون المعرفي أكثر من إطار مما له أهمية في فهم النص أو إعادة بــنائه، كمــا له أهمية في إبداع النص وإنتاجه. ومن هذه الأطر مخزون الفرد المــبدع أو المتلقي من المعلومات حول موضوع البناء النصي، فما أن يقرأ أو يســمع شيئا عن هذا الموضوع حتى تبدأ هذه المعلومات بالتدخل لصنع صورة أو لوضــع بعد لفهم المتلقي. قال تعالى: ﴿يا أيها النبي لِمَ تحرّمُ ما أحل الله لك، تبتغــي مرضاة أزواجك﴾ فمن يقرأ (تبتغي مرضاة أزواجك) دون أن يكون عنده مكنون معرفي عن المخاطب (وهو محمد صلى الله عليه وسلم) وأنه خير من لا يــتجاوزون حــدود الله ابتغاء مرضاة أزواجهم، يدرك أن الجملة (تبتغي) جملة خبرية مؤكدة مضمونها، فيقرأها بالاستفهام الإنكاري وليس بالإخبار. وكذا، فإن من يتصدى لفهم نص وعنده معلومات كافية عن الإشارات المعرفية والحضارية التــي فــيه، فإنــه سيجد إدراكه أكثر بكثير ممن يقل عنه في هذا، وإنْ تعادلت كفاءتهما اللغوية.

ومـــن هذه الأطر ما ذهب إليه منسكي[59] في محاولته تأطير المعلومات المعرفية المخزنة في الذاكرة في شكل بنى مخصصة للبيانات يسميها (أطر معرفية) تمثل مواقــف نموذجــية، وهي عنده تستعمل كما يلي: عندما يعترضنا موقف جديد (وهــو هــنا نصّ لغوي) فإننا نحتاج مما هو متوفر في ذاكرتنا إلى بنية تسمى إطــارا معرفــيا، وهي عبارة عن إطار نتذكره، وبه يتم تكييف الموقف، وتحديد التفاصيل، وتوجيه النص. وهو إطار يزودنا، ولو جزئيا، بعملية التنسيق بين ما نســمعه والإطار الذي نثبتناه في معلوماتنا المخزونة: وهي التي يسميها شانك[60] (التبعية التصورية).

وعلــى الرغم من الانتقادات التي وجهت إلى نظرية التبعية التصورية التي جاء بهــا شــانك تطويرا لعمل منسكي، وبخاصة النقد الموجه إلى مــا يراه شرطا لــنحوية الصــياغات التصــورية، يقول[61]: (إن المخطط التصوري الذي لا يضم سوى المعلومات المنقولة عبر الجمل لا يعد نحويا من وجهة نظر تصورية، أي إن الصــياغة التصورية لا تعد كاملة إلا إذا شرحت فيها كل الحالات التصورية التــي يتطلبها فعل الخطاب أو النص) على الرغم من النقد الموجه لهذا، إلا أن مضــمون هــذه الأطــر ووجودها يمثل شكلا هاما من المعلومات غير اللغوية لوصــف العملية التي يتم بها فهم النص اللغوي بمواده وعناصره اللغوية، ولعل أهميــتها (التبعية التصورية) تكمن في أنها تعد الركيزة التي قامت عليها نظرية المخططات الذهنية التي أوجدها سانفورد وجارود. [62]

4- التصور الذهني:

ولعــل هذا البند بخاصة يعدّ من أهم البنود المساعدة في تأويل النصوص. يرى ســانفورد وجــارود[63] أن نجاح عملية الفهم القائمة على المخطط الذهني يعتمد على الدرجة التي يحققها صاحب النص (مبدعا أو محللا) في تنشيط المخططات الذهنــية المناسبة، وهما يلاحظان أن قطعة من النص لابد أن تمثل وصفا جزئيا

محـــددا لعنصـــر من المخطط الذهني ذاته حتى يمكن لها أن تظهر ذلك المخطط للعيان.

يمكـــن أن تُعـدّ فكرة التصورات الذهنية بمخططاتها وانساقها[64] بمثابة الخلفية المعرفـــية المنظمة التي تقود إلى أن نستنتج، أو أن نتنبأ، أو أن نتوقع، مظاهر معينة في تأويل النص، ولكنها – كما تؤثر إيجابا– فقد تؤثر سلبا، فبدلا من أن يـــبدأ المتلقـــي أو المحلـــل باستيعاب النص، يقوم بإنشاء تصور ذهني يبدأ من خلاله بفهم النص، وقد يكون هذا التصور مخالفا لما هو في الواقع فما أن نقرأ شعر عنترة أو امريء القيس، أو نقرأ شعراً عن جبل بن خفاجة مثلا، حتى يبدأ التّصوّر الذهني يوازي النّص موجها أحيانا ومفسّرا أحيانا أخرى.

وقـــد يقـــود هـــذا التصور المتلقي إلى ما ليس في النّص ولا يتصل به بسبب، فيجـــنح به نحو ما لا يمكن الاتفاق معه عليه. وإن كان النّص يتحدث عن شيء معنوي مجرد، فإن المتلقي يأخذ بتكوين تصور ذهني له، وقد يختلف عن غيره فيه، فتكون عملية الاستنتاج أو الاستدلال مختلفة في جزئياتها وإن اتحدت معها في إطارها الكلي[65].

وبذا، يتبيّن أن النّص تتضافر عناصر متعددة ليتم الترابط فيه وصولا إلى الغاية الدلالـــية التـــي كانـــت من المبدع، أو تلك التي يكونها المتلقي. وهذه العناصر بعضـــها فـــي الـــنص ذاته وبعضها من خارج النص، ولكنها تتصل به بسبب. وهناك عناصر أخر من خارج النص، بعضها مما أشار إليه بتوفي S.J.Peyofi ممـــا يسميه المعاني الإضافية، والمعاني الإشارية، والمعاني الإحالية، والمعاني التداولـــية... وغيرها . وهي تحتاج إلى بحث مستقل هو عندنا قيد الإعداد في الوقـــت الحاضـــر، فقـــد أوضـــحنا فيه ما نراه موضحاً لما يرمي إليه الباحث، وسنولي توضيح موضوعات أخر لها صلة بهذا.

الهوامش

1- ابن يعيش: شرح المفصل

2- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص30

3- المرجع السابق ص 31

4- المرجع السابق ص 32

5- محمد الحناش: المجلة الدولية للتواصل اللساني عدد ــــ12ــــ

6- خليل عمايره: وقفة مع "صلوات في هيكل الحب" للشابي، مجلة دراسات يمنية 9، 1998.

7- الجرجاني: دلائل الإعجاز ص85.

8- انظر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص363، 410.

9- ليس من أهدافنا في هذا البحث استقصاء هذه الظاهرة ومواضع وجودها في أبواب النحو العربي، وحسبنا أن نشير إليها هنا ونلفت الانتباه إلى أنها تحتاج إلى مزيد من الدراسة، ولعل أستاذنا د. تمام حسان من أبرز العلماء الذين حاولوا وضع معايير لها.

10- انظـــر خلـــيل عمايره العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه، دار ثروت للطباعة والنشر جدة ط2، 1992.

11- طه 83

12- طه 85

13- طه72

14- تمام حسان البيان في روائع القرآن ص401.

15- وانظـــر: تمام حسان، الاتصال والكفاءة الإعلامية، محاضرة ضمن النشاط الثقافي لمعهد اللغة العربية، مكة المكرمة،1411هـــ.

16- انظر السكاكي، مفتاح العلوم.

17- الجرجاني: دلائل الإعجاز

18- عبد القادر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني بالقاهرة جدة 1992 ص75

19- المرجع السابق ص76 وانظر ص 294- 296

20- وهو بيت لسبيع بن الخطيم التيمي بقوله لزيد الفوارس الضبي وهو:

سالت عليه شعاب الحي حين دعــــا أنصاره، بوجــــوه كالدنانيـــــر

انظر دلائل الإعجاز ص74.

21- السيوطي، الاقتراح، تحقيق أحمد قاسم ص75.

22- محمد عيد، أصول النحو العربي، عالم الكتب- القاهرة 1978 ص185.

23- آل عمران 102 وانظر البقرة 132

24- البقرة 184.

25- الفرقان 20.

26- الفرقان 7

27- الفرقان 21.

28- الزمخشـري، الكشاف، تعليق محمد عبد السلام شاهين مكتبة دار الباز، مكة، دار الكتب العلمية- بيروت- 1990 جـ3/ صفحة 264-265.

29- انظـر: خليل عمايـره، المعـنى فـي ظاهـرة تعدد وجوه الإعراب. مجلة الدراسات الإسلامية- الجامعة الإسلامية إسلام أباد، 1992.

30- انظر: خليل عمايره، في نحو اللغة وتراكيبها. (الفصل الثالث).

31- البقرة: 177.

32- النساء: 162.

33- انظر: محمود حمزة الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل، تحقيق شمران العجلي، جار القبلة جدة، ومؤسسة علوم القرآن بيروت 1988ط 312/1 وانظر معاني الفراء 1/ 106 ومجمع البيان للطبرسي: 139/2.

34- السكاكي، مفتاح العلوم، تعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان، 1987 ص 586.

35- سيبويه، الكتاب، طبعة بولاق 246/1، 249، 288 وانظر فيه أيضا رواية أخرى (النازلون) 104/1.

36-

37- الشعراء: 119.

38- البقرة: 234.

39- البقرة: 228.

40- الزمخشري، الكشاف ط270/1.

41- يس:69.

42- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، مكتبة الانجلو المصرية -مصر،1993، ص104-105.

43- الجرجاني: دلائل الإعجاز ص176 -177.

44- أبو حيان، البحر المحيط 504/1.

45- ابن أبي الربيع: البسيط في شرح الجمل 553/1- 554.

46- أبو حيان، البحر المحيط 456/1.

47- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز تعليق محمود شاكر ص93.

48- السابق ص94.

49- المرجع السابق ص226.

50- المرجع السابق ص227.

51- المرجع السابق 231 وفي الوصل والفصل كلام نافع جدا وكثير في دلائل الإعجاز 222 – 249 وفي مفتاح العلوم للسكاكي ص248 فليرجع إليهما من شاء.

52- البقرة: 6- 7 وانظر دلائل الإعجاز ص232، 233.

53- انظر ص من هذا البحث.

54- الجرجاني، جلائل الإعجاز ص525.

55- وانظـر لاينز (1968) ص404، (1977) ص 177، 570، 574 ستروسن (1979) ص 155

كينان (1971) ص45

جرايس (1981) ص190

ستالنكر (1978) ص321.

56- فيرث (1957) ص226، 182.

57- هايمز (1964، 1962) ص وانظر سيدوك (1978) ص281، فلمور (1977) ص199، 119.

58- لويس (1972) ص173.

59- وانظـر منسكي (1975) ص569. وانظر فلمور (1975) دارشر وهورنشتاين (1976) ص 357/ وجانسلر (1977)

60- شانك (1972)، (1973) ص201.

61- منسكي (1972)، ص569.

62- انظر سانفورد وجارود (1981) ص110

63- المرجع السابق ص129.

64- وانظر عن الانساق الذهنية فان ديك (1981) ص141.

65- انظر هافيلد وكلارك (1978) ص313.

المراجع والمصادر

1- بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص، مكتبة الانجلو المصرية –القاهرة- 1993.

2- الجرجانـــي، عـبد القاهر، دلائل الإعجاز، ت محمود شاكر، دار المدني –القاهرة- جدة 1992.

3- حسّان، تمام: البيان في روائع القرآن،عالم الكتب- القاهرة 1993.

4- حسّان، تمام الاتصال والكفاءة الإعلامية، ضمن النشاط الثقافي لمعهد اللغة العربية مكة المكرمة 1411هـ.

5- الحناش، محمد: مجلة التواصل اللساني، فاس- المغرب

6- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط. دار الفكر بيروت 1978، دار الباز مكة المكرمة.

7- ابـــن أبـــي الربـــيع، البســـيط في شرح جمل الزجاجي، تحقيق عياد الثبيتي، دار الغرب الإسلامي 1986.

8- الزمخشـــري، جـــار الله: الكشاف، تعليق محمد عبد السلام شاهين مكتبة دار الباز، مكة 1995.

9- السكاكي، مفتاح العلوم، تعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت 1987.

10- ســـيبويه، الكتاب، طبعة بولاق، المطبعة الأميرية 1317هـ وت عبد السلام هارون دار الجيل بيروت 1991.

11- الســـيوطي، الاقـــتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد الحمصي ومحمد أحمد قاسم، جروس برس 1988.

12- الطبرسي، مجمع دار البيان، دار المعرفة، بيروت 1986.

13- عمايـــره، خلـــيل أحمد: وقفة مع 'صلوات في هيكل الحب' للشابي، دراسات يمنية مركز البحوث والدراسات اليمنية- صنعاء.

14- عمايــره، خلــيل أحمد: في نحو اللغة وتراكيبها، مؤسسة علوم القرآن- الشارقة ط2، 1989.

15- عمايــره، خليل أحمد: المعنى في ظاهرة تعدد وجوه الإعراب، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، إسلام أباد 1992.

16- عمايــره، خلــيل أحمــد: العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه، ط2، دار ثروت للنشر والتوزيع- جدة 1992.

17- عيد، محمد: أصول النحو العربي، عالم الكتب- القاهرة 1978.

18- الفراء، أبو زكريا: معاني القرآن، عالم الكتب بيروت ط2 1980.

19- الكرمانــي: محمود حموة، غرائب التفسير وعجائب التأويل، تحقيق شمران العجلي، دار القبلة- جدة ومؤسسة علوم القرآن- بيروت 1988.

20- ابن يعيش: شرح المفصل، عالم الكتب -بيروت، مكتبة المتنبي- القاهرة.

21. Chafe, W. L. (1970) Meanging and the Structure of Language University of Chicageo Press.

22. Charniak, E. (1975) 'Organization and inference in a frame - laide system of common-sense knowledge' in (eds.) R. c. Schank & B.G Nash-Webber.

23. Dresher, B.E. & Hornstein, N.H. (1976) 'On some supposed contributions of artificial intelligence to the scienfific study of language' Conition 4:321-98.

24. Filmore, C.J. (1975) 'An alternative to checklist theories of meaning' Proceedings of the First Annual Meeting of the Berkeley Linguistics Society University of California.

25. Filmor, C.J. (1997) 'Topics in lexical semantics' in %ed.) R.W. Cole Current Issues in Linguistic Theory Bloomingtion: Indiana University Press.

26. Firth, J.R. (1957) Papers in Linguistics Oxford University Press.

27. Gensler, O. (1977) 'Non-syntactic anaphora and frame semantics' Proceedings of the Third Annual Meeting of the Berkeley Linguistics Society University of California.

28. Grice, H.P. (1957) 'Logic and conversation in (eds.) P. Cole & J. Morgan Syntax and Semantics 3: Speech Acts New York: Academic Press.

29. Grice, H.P. (1981) 'Presupposition and conversational implicature' in (ed.) p> Cole.

30. Haviland, S. & Clark, H.H. (1974) 'What's new? Acquiring new information as a process in comprehension' Journal of Verbal Learning and verbal Behavior 13:512-21.

31. Hymes, D. (1962) 'The ethonography of speaking' in (eds.) T. Gladwin & W.C. Sturtevant.

32. Hymes, D. (1964) 'Toward ethnographies of communicative events' in (ed.) P.P. Giglioli.

33. Katz, J.J. & Fodor, J.A. (1963) 'The structure of a semantic theory' Language 39: 170-210.

34. Keenan, E.L. (1971) 'Two kinds of presupposition in natural language' in (eds.) C.J.

35. Filmore & D.T. Langendoen Studies in Linguistic Semantics New York: Holt, Rinehart.

36. Lewis, D. (1972) 'General Semantics' in (eds.) D. Davidson & G.H. Harman Semantics of Natural Language Dordrechet; Reidel.

37. Lyons, J. (1968) Introduction to Theoretical Lingwstics Cmbridge University Press.

38. Lyons, J. (1977) Semantics Cambridge University Press.

39. Minsky, M. (1975) 'A framework for representing Knowledge' in (ed.) Winston, P.H. The Pevrlahwe of New York.

40. Petofi, J.S. (ed.) (1978) Texts by Sentence. Basic Questions of Text Linguistics Hamburg: Busks Verlag.

41. Sadock, J.M. (1978) 'On testing for conversational implicature' in (ed.) P.Cole.

42. Sanford, A.J. & Garrod, S.C. (1981) Understanding Wrintten Language Chichester: Wiley.

43. Schank, R.C. (1972) 'Conceptual dependency: a theory of natural language understanding 'Cognitive Psychology 3: 552-631.

44. Schank, R.C. (1977) 'Rules and topics in conversation' Gongitive Science 1: 421-42

45. Stalnaker R.C. (1978) 'Assertion' in %ed.) P. cole.

46. Sudnow, D. (ed.) (1972) Studies in Social in Social Interaction New York: The Free Press.

47. Van Dijk, T.A. (1981) 'Review of R.O. Freedle (ed.) 1979' Journal of Linguistic 17: 140-8.